

(١)

فضائل العشر من ذي الحجة

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي أمرنا بالاستجابة، وحثنا على التوبة والإنابة، أحمده سبحانه وأشكره على نعمة التوفيق لطريق السعادة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في النسيك والصلاة والعبادة، وأشهد أن سيدنا ونبينا وتاج رؤوسنا وبهجة قلوبنا وقرّة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله، علمنا منهج الرشاد والقيادة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أولي الفضل والسيادة، أما بعد:

فها نحن نعيش نفحات أيام مباركات، أهلت علينا كغيث يروي القلوب الظامئة، وأشرقت على نفوسنا كشمس تبديد ظلمات الغفلة، إنها كنوز ثمينّة، ومغانم عظيمة، ومنح ربّانية تتجلى فيها الرحمة والمغفرة بأبهى صورها، إنها أيام الطاعة والنور والعودة إلى الربّ الغفور! إن هذا الزمان زمان تنزل البركات، ورفع الدرجات، وإجابة الدعوات، إن العشر الأوائل من ذي الحجة هي التي أقسم الله جلّ جلاله بها في كتابه الكريم؛ فقال سبحانه: {والفجر * وليالٍ عشر}، وقسم الله أيها الكرام عظيم!

أيها الناس، هل تدبرتم فضل هذه العشر؟ هل استشعرتُم عظيم منزلتها عند الله جلّ جلاله؟ إن عشر ذي الحجة ليست مجرد أرقام في تقويم الزمان، بل هي خير أيام الله الحنان المنان العظيم الإحسان، أفلا يحرص اللبيب على التزوّد من خيرها وبركتها؟ ألا تعلمون أن القلوب تتعلّق فيها بالبيت الحرام وتشتاق إلى سجدة على بلاطه تغسل الهُموم وتُسقط الذنوب! إن فيها يوم عرفة، وما أدراكُم ما يوم عرفة؟! يوم تجتمع القلوب على صعيد واحد، تلهج بالدعاء والتضرّع، وتنتظر العفو والمغفرة من ربّ ودود، يوم يباهي الله فيه بأهل عرفة ملائكته، فما أعظم هذا المشهد! وما أجلّ هذا المقام! ثم يتبع ذلك يوم النحر، يوم تراق فيه الدماء تقرباً إلى الله تعالى، وتتجسّد فيه معاني التضحية والفداء، فهل لنا في هذا المقام من عبرة؟! وهل لنا من هذه القصة أجلّ عظة؟ إن هذه العشر تجمع أمّهات العبادات، ففيها الصلاة الواجبة، وفيها الصيام المستحب، وفيها

الصَّدَقَةُ الْمُتَقَبَّلَةُ، وَفِيهَا ذِكْرُ اللَّهِ بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّحْمِيدِ، وَفِيهَا الْحُجُّ لِمَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، فَأَيُّ فَضْلٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟
وَأَيُّ خَيْرٍ أَسْمَى مِنْهُ؟!

فَيَا أُولِي الْأَلْبَابِ، إِنَّ هَذِهِ الْفَضَائِلَ تَسْتَنْهَضُ الْقُلُوبَ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَتَسْتَنْفِرُ الْهَمَمَ لِلْاجْتِهَادِ فِي الطَّاعَاتِ وَصُنُوفِ الْقُرْبَاتِ، فَلَنَجْعَلَ هَذِهِ الْعَشْرَ مَحَطَّةً لِلتَّزَوُّدِ مِنَ الْإِيْمَانِ، وَمِيدَانًا لِلتَّنَافُسِ فِي الْحَيَاتِ، وَمَوْسِمًا لِلتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَحَادِيكَ هَذَا الْبَيَانُ الْمُحَمَّدِيُّ الشَّرِيفُ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ».

عِبَادَ اللَّهِ، فَلَنَعْتَنِمَ كُلَّ دَقِيقَةٍ فِي هَذِهِ الْعَشْرِ؛ فَإِنَّهَا حَدَائِقُ غَنَاءٍ، تَفْتَحُ أَبْوَابَهَا لِعِبَادِ اللَّهِ، وَتَفُوحُ مِنْهَا أَزْكَى الرِّوَائِحِ؛ رَوَائِحِ الذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ، كُلُّ يَوْمٍ فِيهَا زَهْرَةٌ يَانِعَةٌ، وَكُلُّ لَيْلَةٍ فِيهَا نَجْمٌ مُتَلَالِيٌّ يُضِيءُ سَمَاءَ الرُّوحِ، وَفِيهَا تَرَدَّدُ أَصْدَاءُ التَّلْبِيَةِ فِي الْأَرْجَاءِ، «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ»، إِنَّهَا أَنْشُودَةُ الرُّوحِ الْمُشْتَاقَةِ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْعَتِيقِ، تُعَبِّرُ عَنْ وَحْدَةِ الْأُمَّةِ وَتَجَرِّدُهَا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ.

وَاعْلَمُوا أَيُّهَا النَّبَلَاءُ أَنَّ هَذِهِ الْعَشْرَ لَيْسَتْ حِكْرًا عَلَى الْحَاجِّ وَحْدَهُ، بَلْ هِيَ مِنْحَةٌ رَبَّانِيَّةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، فُرْصَةٌ سَانِحَةٌ لِنَزَقِي بِنَفْسِنَا، وَتَقَرَّبَ مِنْ خَالِقِنَا، فَلَنَجْعَلَ مِنْ كُلِّ لَحْظَةٍ فِيهَا غَنِيمَةً، وَمِنْ كُلِّ تَسْبِيحَةٍ كَنْزًا، وَمِنْ كُلِّ صَدَقَةٍ نُورًا يُضِيءُ لَنَا الدُّرُوبَ وَالْقُلُوبَ.

أَيُّهَا الْكَرَامُ اسْتَمِعُوا هَذِهِ الْأَيَّامَ الْمُبَارَكَةَ بِهَمِّ عَالِيَةٍ، وَعَزَائِمَ صَادِقَةٍ، صَلُّوا الْأَرْحَامَ، سَاجِدُوا، اجْبُرُوا خَوَاطِرَ خَلْقِ اللَّهِ، زَكُّوا أَلْسِنَتَكُمْ بِالطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ، أَكْثَرُوا مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَدَبُّرِ آيَاتِهِ، اهُجُّوا بِالِدُّعَاءِ فِي الْأَسْحَارِ وَعِنْدَ الْإِفْطَارِ، أَحْسِنُوا إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، اجْعَلُوا هَذِهِ الْعَشْرَ نُقْطَةً تَحْوِلُ فِي حَيَاتِكُمْ، جَدِّدُوا الْعَهْدَ مَعَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، {وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَبَعْدُ:

فَإِنَّ الْمُخَدَّرَاتِ تَحْرِيبٌ لِلْعَقْلِ الَّذِي هُوَ مَنَاطُ التَّكْلِيفِ، وَمِفْتَاحُ الْمَعْرِفَةِ، وَمَصْدَرُ الْإِبْدَاعِ، الْمُخَدَّرَاتُ تَجْعَلُ الْوَاقِعَ فِي بَرَاثِنِهَا أَسِيرًا لِلْوَهْمِ وَالْحَيَالِ الْمَرِيضِ، يَتَوَهَّجُ فِي لَحْظَاتِ زَائِفَةٍ مِنَ السَّعَادَةِ الْكَاذِبَةِ، ثُمَّ يَنْطَفِئُ فِي ظَلَامٍ دَامِسٍ مِنَ الضَّيَاعِ وَالنُّسْيَانِ، حَيْثُ يُضْبِحُ عَبْدًا لِسَهْوَةِ تَقْوَدُهُ، لَا سَيِّدًا لِنَفْسِهِ يُوجِّهُهَا، يَتَحَوَّلُ إِلَى كَائِنٍ يَعِيشُ اللَّحْظَةَ الْمُزَيَّفَةَ، لَا يَرَى أَبْعَدَ مِنْ رَغْبَةِ الْإِدْمَانِ، الْمُخَدَّرَاتُ تُفْقِدُ الْمَذْمَنَ صِلَتَهُ بِرَبِّهِ، وَتَقْطَعُ حَبَالَ الْوُدِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ وَأَحْبَابِهِ، تَجْعَلُهُ وَحِيدًا فِي صَحْرَاءِ الْوَهْمِ، يَتَجَرَّعُ مَرَارَةَ النَّدَمِ، وَيُحْرَمُ مِنْ لَذَّةِ الطَّاعَةِ وَحَلَاوَةِ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ؛ لِذَلِكَ كَانَ النَّهْيُ الشَّدِيدُ مِنَ الْجَنَابِ الْمُحَمَّدِيِّ الْمُعْظَمِ «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُقَتِّرٍ».

أَيُّهَا النَّاسُ انْتَبَهُوا! إِنَّ الْمُخَدَّرَاتِ تُنْهَكُ الْجَسَدَ الَّذِي أَوْدَعَهُ اللَّهُ فِينَا أَمَانَةً، تَنْهَشُ الْأَمْرَاضَ فِي خَلَايَاهُ، وَتَضْعِفُ مَنَاعَتَهُ، وَتَجْعَلُ الْمَذْمَنَ هَيْكَلًا يُسَيِّرُ، لَا رُوحًا تُضِيءُ، يِهَانُ جَسَدُهُ، وَتُدْنَسُ كِرَامَتُهُ، وَيُعَرَّضُ نَفْسُهُ لِلْمَخَاطِرِ الَّتِي قَدْ تُنْهِئُ حَيَاتَهُ فِي لَمَحَةٍ عَيْنٍ، بَلْ إِنَّ الرُّوحَ الطَّاهِرَةَ الَّتِي نَفَخَهَا اللَّهُ فِينَا، تُصَابُ بِالظُّلْمِ وَالْجَدْبِ، وَتَسْرَبُ إِلَيْهَا الْكَابَةُ وَالْيَأْسُ، وَيَخْفُتُ فِيهَا بَرِيقُ الْأَمَلِ.

وَهَذِهِ رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ ابْتُلِيَ بِهَذَا الدَّاءِ الْعُضَالِ: تَذَكَّرْ أَنَّ بَابَ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ، وَأَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ، عُدْ إِلَى رَبِّكَ، وَاسْتَغِثْ بِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَحِبُّ مِنَ التَّجَا إِلَيْهِ، اسْتَغْنِ بِاللَّهِ، وَلَا تَيَاسُ، وَيُطْمَئِنُّكَ وَعْدُ رَبِّكَ {وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}.

اللَّهُمَّ آتِ نَفُوسَنَا تَقْوَاهَا وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا